استريوغرافية المغرب القديم

❖ نقد الرواية التاريخية القديمة:

- إن تاريخ المغرب القديم لم يكتبه أهل البلاد الأصليين؛ إذ هو تاريخ تضمنته دواوين أدبية بعيدة عن أهله وأرضه، من الميراث الإغريقي واللاتيني.
- فنستقي معلوماتنا عن البربر القدماء عبر واسطتين قرطاجية أو روما نية (لاتينية).
- فكان هذا من الخلل ما يجعلهم "يظهرون لنا وكأنهم أشخاص ثانويين.
- فإن أسماء كـ: سترابون وبولبيوس ...كلها أسماء شهيرة في الاستريوغرافية القديمة، لكن عيبها أنها بعيدة إلى حد كبير عن الساحة المغربية، فهي إما أنها لم تنزلها قط، أو نزلتها بالعرض في أزمنة محدودة لم تعايش أهلها ولم تعرفهم، أو أنها رأتها بمنظور غيرها.
- إن القارئ لتاريخ بلاد المغرب من مصادره الإغريقية واللاتينية ليصدم لأول وهلة بتلك الثانوية التي اصطبغ بها البربري، والحدث التاريخي المغربي. فأنت إذا قرأت خبر فلان وفلان المغربيان فلن تقرأه إلا كواحد من أتباع القائد فلان والعظيم فلان الاغريقي والروماني.
- فإنا نقرأ حرب يوغرطان عند سالستيوس فنجدها لا تروي قصة هذا البطل، بقدر ما تصف صراعات أحزاب الجمهورية الرومانية.
- ثم إن من عيوب المصادر الأدبية القديمة الرتابة في الأحكام التاريخية وقراءة الواقع التاريخي، والتأريخ له، هذا إذا لم نعتبره تقليدا مطلقا لما كتبه الأوائل.
- ثم إننا في جانب الآخر، لا نكاد نجد في الرواية التاريخية القديمة إلا مصادرا مشكوك فيها ألقت لنا أحكاما مشكوك فيها؛ فأكثرها إن لم نقل كلها روايات عن القواد الرومانيين في أثناء حروبهم.
- فوجب ألا نضع تلك الروايات إلا مضمومة بالشك بها، لا من حيث صدق الرواية ولا من حيث صواب الأحكام.

❖ نقد التاريخ الحديث:

- **نقد المستحتات الأثرية:**
- و في مقابل هذه الوثائق الأدبية التاريخية يوجد المخلفات الأثرية لأهالي بلاد المغرب؛ فمنها ما يسهل تأريخه ثم تأويله، إلا أنها قليلة الفائدة، لا تغير شيئا من المعلومات المستفادة من الأدبيات.
- ومنها ما تعارض الباحثون في معرفة حقيقتها وإدراك محتواها.
- وفي جانب آخر يجد الباحث أطلالا رومانية عسكرية ومدنية ونقودا وشواهدا وأنصبا، قد حقق تاريخها وضبط؛ في حين بقيت الأطلال المغربية بعيدة عن ذلك، واستخيف من الخوض فيها.
- إن هذه الصعوبة المزعومة جرّت إلى أن يُعزى كل كشف أثري إلى الرومان.
- **نقد المدارس الحديثة:**
- كانت الدراسات التاريخية الحديثة المتعلقة بتاريخ المغرب القديم وما قبله، إلى غاية الحرب العالمية الأولى مرتبطة بالكلاسكيات (الأدبيات اليونانية واللاتينية).
- فكان كل من مومسن وقصال، يتجهان إلى دراسة الحفريات المغربية بالنظر والتدقيق في المعطيات الأدبية التي بقيت تحتل المرتبة الأولى دائما، في المقاربات والمقارنات التاريخية.
- ثم طرأ تغير منهجي بعد 1930م بدخول الساحة ليونيل بالو فتقدمت الوثيقة الأثرية على الوثيقة الأدبية.
- إلا أن كلا المنهجين خضع للخلفية الإديولوجية الغالبة على زمنهما، وقد حدّ هّا من التجديد المنهجي، ودفع إلى الترويج ، لتلك الأفكار المشوهة عن ماضي المغرب.

- فإن العهد الحجري الصقيل لم ينتهي في منطقة المغرب إلا سنة ألف قبل الميلاد مع مجيء الفينيقيين؛ فتعلم البربر منهم استعمال الحديد دون أن يمروا بمرحلة استعمال النحاس والبرونز!، وهذا ما يعرف بنظرية **الاختزال احضاري**.
- ونصطدم مرة أخرى بنظرية **التبعية الحضارية** لكامبس، القائلة بتلقي البربر الآلات المعدنية من الخارج دون أن يتعلموا كيفية صناعتها بأنفسهم!
- إن قضية تلقي المغاربة الحضارة من الخارج - ليس كل الحضارة- أمر صحيح في العموم؛ إلا أنه ليس ذلك قضية مختصة به.
- ثم إن النقطة المهمة التي خفيت أو أخفيت هي أن المغاربة قبلوا بعض مظاهر هذه الحضارة ورفضوا بعضها الآخر. فهم لم يكونوا يوما قط قد انسلخوا عن موروثهم القديم.